لأن فيه طبيعة الشاعر الملهم المتألم المتأمل .

ورجل العقل والعلم أحمد أمين يكتب بعقله وعلمه ليثير عقل الأمة وليزيد فى علمها من علمها وتراثها فتسير فى طريق العقل النير والعلم الممحص ، يفعل هذا لأن فيه طبيعة القاضى النزيه والعالم المخلص ... ورجل التربية والتجربة المازنى يكتب من تجاربه ودراسته للنفس والأمة ليهذب من أخلاق الشباب ، فيسير على ضوء التجربة من حوادث الماضى . يفعل هذا لأن فيه طبيعة الأستاذ المربى

ورجل الايمان والفضيلة الرافعي يكتب بايمانه وعقيدته ليدافع عن ايمان الأمة ويثبت ايمان الأمة وعقيدتها ، فتسير بنور الايمان ثابتة العقيدة طاهرة المبادىء جريئة فى الحق صريحة فى نبذ الباطل ، يفعل هذا لأن فيه طبيعة المسجد وشيوخ المسجد ، ولان فيه أثراً من وراثة الأسرة المجيدة والبيت الرفيع من الفاروق رضى الله عنه الى عبد الغنى وعبد القادر وأمين وعبد الرحمن ومصطفى صادق . أسمعت ووعيت ؟ قال : سمعت وزد . قلت: وان هذا الارتباط بين كتاب الرسالة بدون تعمل وتعمد من أعاجيب نهضة الأمة ويقظة الأمة ورغبة الأمة وتوفيق الرسالة ، فهى قد لفظت وتركت غير هؤلاء الذين شذوا عن هذه المبادىء وضمت من سار على نهجها وخطتها . تركت غير هؤلاء عن غير قصد ولا عمد ، وان زعموا انهم تركوها حاسبين انها محتاجة اليهم مع انها فى غنى عنهم، فليسوا هم أصحاب رسالة وان أيدوها بموقفهم السلبى ومناقضتهم ، فان جلاء الحق لا يظهر إلا بمزاحمة الباطل ، أسمعت ووعيت ؟ قال: هذا صحيح فزدنى. قلت: ماذا أزيدك ؟ وأخذتنى عبرة وطفقت أنشد بيت الرافعى الذى يرثى به أحمد تيمور باشا ، وما أحقه ان يرثى به .

تأنى المصائب كالتقليد فى نسق أما مصيبتنا هذى فتخترع

وبعد فهذه حادثة واقعة وحديث جرى مازدت فى ذلك شيئا . ويرحم الله أبا السامى فقد ناضل عن الأدب وجدد فى البيان . انه خلاق المعانى وملك الألفاظ يتلاعب بها كيف شاء . ناضل عن الأدب حتى كاد يستقر ، ودافع عن الدين والقرآن والنبى صلى الله عليه وسلم دفاعا يجزيه الله عليه أحسن الجزاء. انه ولى الرحمة والغفران .

عن جريدة (المدينة المنورة) محمد حسين زيدان

أدب الرافعى أدب ممتاز

للسيد كمال الحريرى

المرحوم فقيد الأدب مصطفى صادق الرافعى فى وصف الجمال وصوره والتعبير عن آثاره فى النفس والروح طريقة ممتازة هو فيها طراز وحده بين أدباء العربية فى جميع عصورها . فانت من وصفه الجمال الإنسانى أمام لوحات بيانية سحرية ، تكاد الحياة والعاطفة والروح تنطق مجتمعة من خلالها . وهو فى الوصف الروحى العاطفى للجمال الإنسانى المادى ، صاحب مدرسة سدت فى فراغ الأدب ثغرة ما أغنت استعاراته وتشابيهه عن سدها شيئاً . ولا غرو فإن روح التعبير عن الجمال التى تسللت إلى أنامل فيدياس الإغريقى فأنشأت له من الصخر الأصم هياكل وتماثيل بشرية فى عاطفتها وحيويتها وروحها ، قد هبطت بعد أجيال على قلم الرافعى . فأوحت إليه تحفه الأربع[1] فى فلسفة الجمال والحب . وأنانى هذا الحوار الذى دار بينى وبين صديق الرسام إنما أعرض لوناً جديداً حيوياً من اصباغ وصف الجمال البشرى ، للأستاذ الرافعى وحده فضل استكشافه وفرضه على الأدب ، ولوددت أن الأدباء غمسوا فيه ريشاتهم حين رسمهم لوحات الجمال الإنسانى . ولا بأس أن أحتكم فى تذوق هذا اللون أو النفور منه إلى أدباء الرسالة ليقولوا فيه كلمتهم

لى صديق فنان فى الرسم ، ريشته لسانه ، وترجمانه ألوانه ، أسمعته جملة لى فى وصف أبى نواس وهى : لقد كان أبو نواس فى حدائق الكرخ فراشة شاعرة ترتع بين أغصان القدود وأوراد الخدود . ثم وقفت عند هذه الجملة منتظراً أن تروقه هذه الاستعارة . ولكنه ما زاد على أن قال : صعب على يا صديق أن أتصور كيف يتجرد صاحبك أبو نواس من

(١) يعنى بها كتب رسائل الاحزان والسحاب الاحمر وأوراق الورد وحديث القمر

هيكله البشري ليتجسد في جسم فراشة شاعرة ترتع بين أغصان القدود وورد ات الخدود . وهل القدود مما تنبت الايكة والخدود مما تتفتح عنه خميلة الورد ؟

قلت دهشاً : أين يذهب بك ياصاح ؟ ان هي إلا استعارة بديعة يلجأ اليها الأدباء حين يشبهون اعتدال القد بالغصن وحمرة الخد بالورد . قال : ان أصحابك يسيئون الى الخدود المورد والقدود المتأودة حين يشبهون الأولى بالورد والأخرى بالغصن . الغصن جميل والورد فتان ولكن جمالها مادي لا يقاس الى جمال خد العذراء حين يتورد وقوام الحسناء حين يتأود .

وأمامي الآن — وهنا أشار الى لوحته — منظر فتاة حسناء تقطف من خميلة ورود اً زاهية حمراء . فأيهما أجمل وأنضر وأحلى وأملح ؟ هذه الورود في يديها أم هذه الحمرة في خديها ؟ . ان حمرة خديها الملتهبين بدماء النضارة والصبا حرام أن تشبه بحمرة الورد . فليس في الورد خدود تلتهب التهاباً ، ولا وجنات ترف نضارة وشباباً . وكيف يستوي خد الورد البارد الجامد الذي لا يحرك احساساً ولا يثير عاطفة ، وخد الفتاة المضرم من نار الصبى ، المتوهج من حرارة العاطفة ، المشبوب من خمرة الروح ، المطلول من ندى الشهوة . يثير في كل قلب ألواناً من المشاعر الراقدة ، وضروباً من الأحاسيس الهامدة ؟

وعيون النرجس على ما بها من جمال وتناسق بليدة جامدة فليس فيها هدب طويل يثير ، ولا جفن كحيل يغري . وأين من مقل النرجس «مغناطيس» العيون «وكهرباؤها» وسحرها واغراؤها ؟

الجمال بسره الكامن وجوهره الرمزي انما هو فن الروح والعاطفة ، فكيف تعبر عنه وردة محمارة أو غصن أملود أو طاقة نرجس أو سبيكة ذهب أو فضة مجلوة أو ما شئت من هذه التشابيه النفسية المادية التي خلقت لامتاع النظر اللطيف وإرضاء الحاسة الرغيبة ؟ أما تمثيل الجمال وتصوير الحلاوة ففن تلعب فيه الروح أهم دور وأخطره ، وليست كل هذه التشابيه من فن الروح في مراح ولا مغدى . قلت : ولكن الجاحظ يقول في صفة جارية حسناء « وكأنها طاقة نرجس أو كأنها ياسمينة أو كأنها خرطت من ياقوتة » ثم ينقطع به نفس الوصف فلا يجعل للروح وفنها بالا ولا ذكراً . قال صديقي ولكن ما عجز عنه الجاحظ من الوصف الروحي للجمال المادي أدركه نابغة كتاب هذا الجيل الرافعي . وهمك به من أديب يستعلن بالأدب العربي على آداب الأمم الراقية ويقول (أنا أدب لغة القرآن) .

ولقد لبثت زمناً أبتغي من الأدب العربي صوراً بيانية لوصف الجمال الانساني تكون في دقة تعبيرها كلوحات الزيت أو صور الفوتوغراف ، فلا أظفر منه إلا بهذه الاستعارات (الزهرية) أو التشابية الجوهرية حتى قرأت للمرحوم كتبه الثلاثة في فلسفة الحب والجمال فألقيت عصاي وآمنت بمعجزات الرافعي .

قال الاستاذ رحمه الله في كتابه حديث القمر :

يا رحمة لهذا الجمال ! وجه وضيء الطلعة كأنه السعادة المقبلة يصل إليه دم الشباب من القلب فيتحول فيه إلى جمال وفتنة ، وكأن معاني الحسن التي تتحير في خديه حقيقة إلهية تطل على النفوس من وراء الشفق . فيه عينان تنظران والله بروح تكاد تنطق ولا يفهم عنها إلا كأنها ناطقة . وتفيضان دلالا وتفترأ فكأنما تلقيان على الروح فترة تحلم فيها من أحلام السماء وتستيقظ . وخدان تحير فيهما الجمال فوقف يتلفت عن يمين وشمال ، وتراهما أسيلين بارزين ، فيالله ! هل هما ثديان صغيران من الورد يرضعان طفل الحب ؟ قال : صديقي فكم بين هذا الوصف الساحر الدقيق العاطفي وبين وصف صاحبك الجاحظ المادي السطحي « وكأنها طاقة نرجس وكأنها ياسمينة » ؟ . إن هذه التشابيه على ما بها من جمال المادة والعطر واللون مادية لا ترسم حور العيون وسحر الجفون ولا تصور تواثب النهود والحياة الكامنة في الخدود . أتدري لماذا ؟ لأن لغة العواطف يا صاحبي غير لغة الورود ، وتمايل الأغصان لا يشبهه تأود القدود

حلب

كمال الحريري